مجلة المرابط

العدد : ٢١٧ الموافق في ذو القعدة ١٤٢٠ هجري ٣ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : فخ العولمة	بقلم : د. صلاح الدين بن إبراهيم

حول العنوان :

استعرت عنوان الموضوع من الكتاب الذي كتبه بالألمانية السيدان : هانس بيتر مارتين - **Hans Peter Martin** - وهارالد شومان - **Harald Schumann** - وقام بترجمته إلى العربية الدكتور عدنان عباس علي ، وراجعه وقدم له الأستاذ الدكتور رمزي زكي ، والكتاب صادر عن سلسلة « عالم المعرفة » الكويتية .

- يقول الدكتور رمزي زكي في المقدمة : " حينما انتهيت من قراءة هذا الكتاب قلت في دخيلة نفسي : ما أروع هذا الكتاب ، وما أعظم الدروس والعبر التي يخرج بها القاريء من قراءته له! ، بل ما أروع نُبل الرسالة التي أراد المؤلفان أن يبعثا بها للقاريء ، حيث يمتلك المؤلفان رؤية إنسانية حميمة ؛ تدافع عن كرامة الإنسان وحقوقه في هذا العالم الذي أصبح متوحشاً " .

- ويصرح الدكتور زكي بسبب إعجابه بالكتاب وتقديره للمؤلفيْن بقوله :

" والحقيقة هي أن الميزة الأساسية التي تميز بها هذا الكتاب ، هي تلك المقدرة اللافتة للنظر التي يمتلكها مؤلفا الكتاب ، على تبسيط وشرح واستخلاص أعقد الأمور والقضايا ، والنتائج التي تنطوي عليها قضية العولمة ، وهي القضية التي كثر الحديث عنها - فجأة - ليس فقط على المستوى الأكاديمي ، وإنما أيضاً على مستوى أجهزة الإعلام والرأي العام والتيارات السياسية والفكرية المختلفة ... ولم يعد الأمر يقتصر على مساهمات الاقتصاديين وعلماء السياسة أو المهتمين بالشؤون العالمية ، بل تعدى الأمر ليشمل مساهمات الاجتماعيين والفلاسفة والإعلاميين والفنانين ، وعلماء البيئة والطبيعة ... الخ " .

- وقد آثرت الحديث - بإيجاز كبير - عن أهم المحاور التي تناولها الكتاب لأنها تعبر عن رؤية مشتركة للواقع الذي يهدد مستقبل الإنسان ، ولأن النتائج التي توصل إليها المؤلفان ونصحا بها شعوب أوروبا جديرة بأن يتأملها التيار الإسلامي ليطلع على المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه في المساهمة الفعالة من أجل إنقاذ المسلمين وغيرهم من الطامات المهلكات :

١) **العولمة الحديثة .. ردة إلى الماضي السحيق للرأسمالية** : « فبعد قرن طغت فيه الأفكار الاشتراكية والديمقراطية ومباديء العدالة الاجتماعية .. تلوح الآن في الأفق حركة مضادة تقتلع كل ما

حققته الطبقة العاملة والمتوسطة من مكتسبات ، وليست : **زيادة البطالة ، وانخفاض الأجور ، وتدهور مستويات المعيشة ، وتقلص الخدمات الاجتماعية التي تقدمها الدولة ، وإطلاق آليات السوق وابتعاد الحكومات عن التدخل في النشاط الاقتصادي وحصر دورها في " حراسة النظام " وتفاقم التفاوت في توزيع الدخل والثروة - وهي الأمور التي ترسم الآن ملامح الحياة الاقتصادية والاجتماعية في غالبية دول العالم -** .. كل هذه المظاهر ليست في الحقيقة إلا عودة إلى البدايات الأولى للنظام الرأسمالي إبان مرحلة الثورة الصناعية (١٧٥٠ - ١٨٥٠) وستزداد سوءاً مع سرعة تحرك عجلات العولمة الحديثة » .

ويتنبأ المؤلفان بأن الأمور إذا سارت كما هي عليه اليوم فسيشهد القرن الحالي أن ٢٠% من سكان المعمورة يمكن أن يحصلوا على العمل الذي يمكنهم من العيش في رغد وسلام ، وأن ٨٠% سيفيضون عن الحاجة ، ولن يتمكنوا من العيش إلا من خلال مؤسسات الإحسان والعمل الخيري .

ويدلل المؤلفان على ما يسميانه « ديكتاتورية السوق والعولمة » بما يروجه مفكرو هذه الظاهرة ، مثل قولهم :

" إن مراعاة البعد الاجتماعي واحتياجات الفقراء أصبحت عبئاً لا يطاق "

" إن دولة الرفاه تهدد المستقبل ، وإنها كانت مجرد تنازل من جانب رأس المال إبان الحرب الباردة "

" على كل فرد أن يتحمل قدراً من التضحية حتى يمكن كسب المعركة في حلبة المنافسة الدولية "

وهذا ما يطبق في الواقع من غير استشارة الشعوب .. وهذه هي الديكتاتورية

٢) **رأس المال يزعزع سلطة الدولة** : ويتحدث المؤلفان عن « أممية رأس المال » وكيف يضغط أصحاب رؤوس الأموال على الحكومات لكي تمنحهم امتيازات .. في الضريبة والخدمات والأجور .. وإلا هرَّبوا أموالهم !! .

٣) **الترويج لحتمية العولمة ذات الاتجاه الليبرالي المتطرف** : فالعولمة عند منظريها شبيهة بالحوادث الطبيعية التي لا يمكن الوقوف في وجهها .. ويفند هذا الإدعاء بأن سياسات معينة هي التي فرضت هذا الشعور بما أوجدته من أوضاع وبما فرضته على الحكومات من تغيير للنظم والقوانين .. **فما يجري لا يعبر عن « حتميات » لا يمكن تجنبها ، بل هي إرادات سياسية واعية بما تفعل وعبرت عن مصلحة الشركات دولية النشاط** .

٤) **بطلان القول بأن انصهار الاقتصادات الوطنية والإقليمية في اقتصاد عالمي موحد يعود بالخير على الجميع** .. فالعالم سيتحول إلى جزر من الفقر والحاجة .. وسيتضاعف حجم الديون على الدول الفقيرة والنامية .

٥) **العولمة تعني إزدياد الفروق بين البشر والدول اتساعاً لا مثيل له .. بسبب تركُّز الثروة والمعرفة في أيدي فئات قليلة .**

٣٥٨ ملياردير يملكون الآن ثروة تضاهي ما يملكه ٢.٥ مليار من سكان المعمورة
٢٠% من دول العالم تستحوذ على ٨٥% من الناتج العالمي الإجمالي
وعلى ٨٤% من التجارة العالمية
ويملك سكانها ٨٥% من المدخرات العالمية

وهذا التفاوت على المستوى العالمي يوازيه تفاوت داخل كل دولة

٦) **دور صندوق النقد الدولي وغيره من المؤسسات النقدية العالمية .. مدمر لاقتصاديات الدول** .. بما يروجون ويدعون إليه من حرية حركة الأموال وتقليص لدور الدولة .. تحت عنوان (تحرير الأسواق النقدية والمالية) وما يضعونه من عقوبات صارمة لمن يخالف التعاليم ! .

٧) **بطلان الربط بين .. الديمقراطية والسوق .. واعتبار ذلك من الحتميات** .. فالواقع يدل على أن الديمقراطية تسخر لخدمة أصحاب رؤوس الأموال !!

٨) **إن نموذج الحضارة الذي ابتدعه الغرب لم يعد صالحاً للمستقبل .**

٩) **العولمة تعني .. النمو المطرد للبطالة .**

١٠) **ليس من السهل العودة إلى العهود التي سادت فيها دولة الرفاه ، وكانت الدولة تتمتع باستقلالية نسبية في اختيار نهجها الاقتصادي والاجتماعي .**

فالواقع يفرض شروطه .. ولكن يجب العمل على توجيه التنافس عالمياً بما يخدم الجانب الاجتماعي والديمقراطي في حياة الأمم .

١١) **إن العولمة ستواجه من قبل الذين تثقلهم تكاليفها بالانعزالية ، وهذا سيهدد النظام العالمي**

اليوم بالبوار .

١٢) يجب أن يؤيد الأحرار كل حركات التمرد على العولمة الحديثة .. وهي حركات تنمو في أوروبا وأمريكا وسائر بلدان العالم .

وبعد جولات موفقة في تفنيد مزاعم مفكري « العولمة » يرفع المؤلفان صوت النذير في أوروبا ويدعوان إلى العودة من جديد إلى مشروع « دولة الرفاه » على المستوى الأوروبي ، وقاما بطرح تصور يتضمن عشر نقاط لمواجهة العولمة الليبرالية الحديثة ، وهي تصلح « وصفة » للجماعات وشعوب العالم الإسلامي :

❶ اتحاد أوروبي ديمقراطي قوي يواجه التحديات .

❷ تقوية المجتمع المدني وتعزيز مشاعره الأوروبية .

❸ الاتحاد النقدي الأوروبي .

❹ توحيد القوانين الضريبية الأوروبية .

❺ فرض ضريبة على التجارة والقروض .

❻ معايير بيئية واجتماعية دنيا للتجارة الخارجية .

❼ إصلاحات ضريبية أوروبية لحماية البيئة .

❽ فرض ضريبة أوروبية على السلع الكمالية .

❾ النقابات العمالية الأوروبية القوية .

❿ التوقف عن تحرير الاقتصاد من دون تعزيز للرعاية الاجتماعية .

نظرتنا إلى العولمة

١- **العولمة** : فكرة قديمة بوسائل جديدة .. وهي صورة - أو مرحلة - من الرأسمالية الليبرالية التي نتعامل معها منذ عقود ، والتي كانت تتصارع مع الفكر الاشتراكي من أجل نشر ما يراه أصحاب كل مذهب في أصقاع الأرض ، فلا ينبغي أن تشغلنا الوسائل عن المضمون .

٢- **والعولمة** - قديماً وحديثاً - تعمل في حياة الأمم والجماعات وفق قوانين واضحة لا تختلف عن قوانين [الضغط العالي .. والضغط المنخفض أو الأواني المستطرقة] فإذا لم يكن هناك صمامات تمنع أو تحد من حركة الهواء أو الماء فإنهما ينتقلان بسهولة ويسر ويحدثان آثاراً في مواطن الضغط

المنخفض أو الفراغ . وكذلك العلاقة بين الأمم والشعوب .

٣- العولمة تهدف إلى : تفكيك القوميات والهويات الثقافية والاقتصادات وإعادة بنائها بما يخدم أهداف مراكز القوة والنفوذ .. والأسس التي تطالب بها العولمة المعاصرة :

- سيطرة السوق وقواعد قيمها .
- تمجيد النزعة الفردية والديمقراطية على النمط الغربي .
- تمجيد الاستهلاك السريع والترفي .
- تشجيع المضاربة في البورصات على أسهم وسندات من أجل تشغيل الكتلة المخيفة من الأموال ذات الأصول المصرفية وغير الإنتاجية [**الاستثمارات المصرفية أكبر بثلاثين مرة من الاستثمارات الإنتاجية في السلع والخدمات**] .

٤- **العولمة الاقتصادية** : تبسيط لمفهوم العولمة التي تعكس آثاراً اجتماعية وسياسية وثقافية وحضارية .. وهذا أمر طبيعي .. إذ لا يمكن فصل الإنسان إلى جوانب ودوائر لا يؤثر بعضها في الآخر .

وهذه النظرة الشمولية إلى مفهوم العولمة تتبناها أمريكا .. وتجد معارضين ينادون بالخصوصيات الثقافية والحضارية (فرنسا ، كندا ، اليونسكو ..) وأنه يجب استثناؤها من حركة السوق ، إلا أن آلة الهيمنة الأمريكية جعلت تأثير هذه الأصوات خافتاً .

٥- **من أهم سمات العولمة المعاصرة** :

❶ الهيمنة على اقتصادات العالم من خلال مؤسسات عالمية (البنك الدولي - صندوق النقد الدولي - منظمة التجارة العالمية - نادي باريس - الشركات متعدية الجنسيات ...) .

❷ زيادة نفوذ الشركات متعدية الجنسيات وذلك بالسيطرة على تدفق رؤوس الأموال ، والاستثمارات ، والإعلام ، والمعلومات .. وهذا مكّن هذه الشركات من السيطرة على **المعرفة** .

❸ دعم وتغذية دول المركز وإضعاف وتهميش دول الأطراف .. بما يستتبعه من إشكالات اجتماعية وأخلاقية ..

❹ توجيه المعرفة باتجاه اهتمامات أصحاب رؤوس الأموال والقوى المسيطرة .. والإمساك بالعقول المبدعة وتوظيفها في مجال خدمة أهداف الممولين .

٦- **أليس للعولمة إيجابيات** ؟ نعم ، ومنها :

- المزيد من المعلومات وتسارع الحصول عليها .
- ازدياد عمليات الاتصال والحوار الثقافي .
- انخفاض التكلفة في نقل المعلومات والأخبار .
- تطوير وسائل الاتصال : الكومبيوتر ، القنوات الفضائية ...

ولكن هذه الايجابيات وغيرها تتضاءل - اليوم - أمام العقبات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية .. الخ التي تملكها دولٌ أو شركات غربية قادرة على صناعة المعلومات والأخبار وتوجيهها ...

يضاف إلى ذلك : حالة الاغتراب الثقافي التي يعيشها المسلمون .. ومن الدلائل عليها :

- الهزيمة النفسية لمالكي زمام الأمور في العالم الإسلامي أمام النموذج الغربي - الأمريكي .
- استيراد المواد الترفيهية والإعلامية والثقافية من الوكالات الغربية .. مما يؤدي إلى (الانسحاق الثقافي) أمام آلة المعلومات الموجهة ...

٧- **الخوف من العولمة** : من حق المسلمين وغيرهم أن يخافوا من آثار العولمة وامتداداتها ، بل إن دولاً في المنظومة الغربية تبدي تخوفها على ثقافتها الوطنية .. مع العلم أنها متحدة في الأصول الفكرية :

- فدولٌ مثل فرنسا وكندا يشكون من زيادة نسبة المواد الإعلامية الأمريكية (٦٥%) التي تتحرك في فضائهم الثقافي .
- وفرنسا تمنع أن تزيد نسبة البرامج الأجنبية (في محطات الكوابل) عن ٣% .
- وزير خارجية كندا الأسبق (فولكنر) يقول :

« لئن كان الاحتكار أمراً سيئاً في صناعة استهلاكية ، فإنه أسوأ إلى أقصى درجة في صناعة الثقافة حيث لا يقتصر الأمر على تثبيت الأسعار وإنما تثبيت الأفكار أيضاً » .

٨- الموقف :

- للعولمة إيجابيات وسلبيات .. ويجب أن يرفض المسلم سلبياتها .
- التحصين الفردي .. جيد وضروري ولكنه لا يكفي .
- التحصين الجماعي .. هو الأصل ، ويجب الإبداع في صوره .
- على مستوى الأمة .. الاعتزاز بالإسلام .. والوحدة .. هما دعامة مواجهة تحديات العولمة بالإضافة إلى اقتراحات سبق ذكرها .

الهوامش :

*** موجز محاضرة ألقيت في الندوة الشهرية ، التي ينظمها المركز الإسلامي في آخن وكل من اتحادي الطلبة والعمال المسلمين في أوروبا ، في آخن - ٢٢ شوال ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠/١/٢٩م .**